﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠﴾ [النمل: 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـجـزاءُ من جنس العمل

لمّا بالغ الرهطُ في سوء التدبير لصالحٍ عليه السلام ومَن معه، والتخطيطِ لقتلهم، ثمَّ لكيفيّةِ التَّبَرُّؤِ من دمهم بعدَ التنفيذ، وكان حالُهم في هذا وعملُهم حالَ و"عملَ مَن لا يظنُّ أنَّ اللّه عالمٌ به، قال تعالى مُحذِّرًا أمثالَهم عن أمثال ذلك: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَكَرُواْ﴾: (مكر) أصلٌ يدلُّ على الاحتيال والخداع[2]، وقد مكَرَ به يمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[3]. قال الجُرجانيُّ: المَكرُ: هو إيصالُ المَكروهِ إلى الإنسانِ مِن حيثُ لا يَشعُرُ[4]. وقيل هو: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغَيرِ بطَريقٍ خَفيٍّ، وكذلك الكَيدُ والمخادعةُ، ولكنَّه نوعانِ؛ قَبيحٌ: وهو إيصالُ ذلك لِمَنْ لا يستحِقُّه، وحَسَنٌ: وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عقوبةً له؛ فالأوَّلُ مَذمومٌ، والثّاني ممدوحٌ[5]. والمقصود بالمكْر في الآية: صرْفُ الغيرِ عمّا يَقصِدُه بحيلةٍ، أو: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغيرِ بطريقٍ خفيٍّ. ومعنى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾: دبّروا أمرًا في احتيالٍ وخديعةٍ خفاءً، وهو إهلاكُ صالح وقومِه. وأمّا معنى: ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾: فجازيناهم بمكْرهم من حيثُ لا يتوقَّعون[6].

2) ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾: (شعر) أصلٌ يدلُّ على عِلْمٍ وعَلَمٍ؛ فالإشعارُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(3) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (مكر).
(4) الجرجاني، التعريفات، ص: 227.
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مكر).
(6) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1692.

الإعلامُ، والشِّعار: العَلامة[1]، والأصلُ قَولُهُم شَعُرتُ، أي: أَصبتُ الشَّعْرَ، ومنه استُعير: شَعَرْتُ كذا، أي: عَلِمتُ علمًا في الدِّقَّة كإصابة الشَّعر، والمَشاعِرُ: الحواسُّ، ومنه قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: 2]، أي: لا تدركونه بالحواسّ[2]. والشُّعورُ يُطلَقُ على العِلْم بالأشياءِ الخَفيَّة، ومنهُ سُمّيَ الشّاعِرُ شاعرًا لِعِلْمِهِ بالمعاني الَّتي لا يَهتدي إليها كُلُّ أَحَدٍ[3]. والمقصود بـ ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ في الآية: نفيُ العِلْم والإدراكِ بِحُصولِ الشَّيءِ الحاصِلِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يَحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأهلِه

دبَّرَ التِّسعةُ المفسِدونَ تدبيرًا لِقَتلِ صالحٍ وأهلِه ليلًا، وعَلِم اللّه مكرَهم وتدبيرهم وتخطيطَهم، فقدَّر إهلاكَهم من حيث لا يشعرون أنَّ اللّه عالمٌ بتدبيرهم ومُجازيهم على نيّتِهم السيِّئة، ولا يحتسبونَ وقوعَ الهلاكِ بهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾:

التدبيرُ السَّيِّئُ مرصودٌ والتخطيطُ للجُرم مشهود

(الواو) في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ استئنافيّةٌ، والجملة بعدَها مُستأنَفَةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، ولا محلَّ لها من الإعراب، وغرضُها بيانُ أنَّ ما قاموا به من تدبيرٍ وخداع، إنّما هو مرصود، ومردودٌ أثرُهُ عليهم، واللّه تعالى مُجازيهم به بما يستحِقّون؛ لأنّهم ظنّوا مخطئينَ أنهم مُستترونَ عن اللّه تعالى بفعلهم، وأنَّ اللّه تعالى لا يطّلعُ على نيّاتهم وتدبيراتهم.

سرُّ التعبير بالمكر في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾:

التآمرُ في الخفاء على أهل الصّلاح غايةُ المكر

يعودُ أصلُ معنى المَكْرِ إلى الاحتيالِ والخداع[5]، والقصدُ منه:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر).
(2) الراغب، المفردات: (شعر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 278.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 92، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1692.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).

صرفُ الغير عمّا يقصدُهُ بحيلةٍ[1]. ويستخدمُ غالبًا في التدبير الضّارّ والتآمُر السَّيِّئِ المذموم، ومحلُّه في القرآن إذا ما أُسند إلى الإنسان، ومنه هذه الآية: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ وعليه، فقد "سمَّى الله تآمُرَهم مكرًا؛ لأنَّه كان تدبيرَ ضُرٍّ في خفاء"[2] أمّا إذا ما أُسند إلى الله تعالى، فإنَّه يرادُ به جزاؤه سبحانه الّذي يوقعه على الماكرين، ومنه قوله تعالى في الآية نفسِها: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾.

دلالةُ التعبير بالماضي في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾:

شأنُ الماكرين التدبير، وشأنُ الله تعالى التقدير

عبَّر بالماضي في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ باعتبارِ وقوع هذا التدبير منهم، فقد وقع فعلًا، لا باعتبار وقوع أثرِه من القتلِ ونحوه، إذ لم يتمكَّنوا من فعلِ ما دبَّروه وحاكوه لصالح عليه السلام وأهلِه، فقد باغتهم الله تعالى بعذابِه قبل أنْ ينالوا بُغْيَتَهم من نبيِّه عليه السلام.

دلالة التعبير بالمصدر ﴿مَكْرًا﴾:

المكرُ العظيم بالأنبياء هدفُ الكافرين

قوله: ﴿مَكْرًا﴾ مصدرٌ مُؤكِّدٌ لفعلِه، فهو مفعول مطلقٌ؛ "للدلالة على قوّته في جنس المكْر، وتنوينُه للتعظيم"[3] والتفخيم؛ تنبيهًا على أنَّ أثره لو وقع، وهو قتلُ صالح عليه السلام وأهله وأتباعه، كان أمرًا جسيمًا، ونلحظُ في هذا التأكيد لمكرهم أنّه بالغٌ التأثير قويُّ التدبير عالي التخطيط.

دلالةُ إسناد المكر إلى الضَّمير:

التشاكلُ الصّوري والاختلافُ المضمونيّ

دلَّ إسنادُ المكر إلى نونِ العظمة في قوله سبحانه: ﴿وَمَكَرْنَا﴾ على عظمةِ الجزاءِ والعقابِ الذي حلَّ بهم بسببِ مكرِهم السَّيِّئِ بصالح عليه السلام، فإنَّ ما يسند إلى العظيم عظيمٌ، ونلحظُ أنّه أسند المكر إلى الضمير العائد إلى الله تعالى؛ ليُشاكل المكرُ الإلهيُّ المكرَ البشريَّ في

(1) الراغب، المفردات: (مكر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 284.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 284.

الفعل وما أسند إليه من ضمير، والغرضُ من المشاكلة بيانُ عظمة اللّه تعالى وقدرته الكبيرة. على أن هناك فرقًا بين (الواو ونا)، لأنّ الواو تنبئُ عن جمعٍ حقيقيٍّ، وأمّا (نا) فتنبئُ عن واحدٍ عظيم، ومع ذلك لا يقدر الجمع الكثير على الواحد العظيم، فهنالك تشاكلٌ صوريٌّ مع اختلافٍ مضمونيٍّ على مستوى الفعل والضمير.

بلاغةُ التعبير عن المجازاة بالمكر:

عـقـابُ الـلـه لبعض الظالمين خـفـيٌّ خـفـاءَ شـرورهـم وإفسادِهم

في قوله: ﴿وَمَكَرْنَا﴾ استعيرَ[1] لفظُ (المكر) الّذي أُسند إلى اسم الجلالة، استعارةً تصريحيّةً تبعية لما حلَّ بهم من عقاب اللّه؛ لما فيه من دلالةٍ على طريقة وقوعِ هذا العقاب بهم، وذلك أنَّه سبحانه قد عاقبَهم بطريقةٍ تشبهُ "فعلَ الماكر في تأجيلِ فعلٍ إلى وقت الحاجة، معَ عدم إشعار مَن يفعل به"[2] حيث باغتَهم سبحانه وفاجأَهم بعقابٍ استأصَلَهم واقتلعهم من جذورهم، في وقتٍ لم يحسبوا فيه حسابًا لذلك، بل كانوا في غيِّهم يدبّرون ويخطّطون للانتقام من نبيِّ اللّه صالح ﷺ، فدبَّروا واللّه تعالى دبَّر لهم، حتى قضى عليهم. وعلى هذا إطلاقُ لفظ (المكر) على الجزاء عليه مشاكلةٌ لفظيّةٌ، أي: إنَّ اللّه تعالى دبَّر لعبده، وسمَّى تدبيره الحكيم مكرًا من قبيل المشاكلة اللّفظية، لا أنّه مكرٌ على الحقيقة. قال القونوي: المكرُ من حيث إنَّه في الأصل حيلةٌ يجلبُ لها غيره إلَى مفسدةٍ لا يسند إليه تَعالَى إلا عَلَى سبيل الازدواج والمشاكلة، أي: بطَريق الاسْتعارَة[3].

سرُّ تكرار ﴿مَكْرًا﴾:

المكرُ الإلهيُّ تحار فيـه الـعـقـولُ وتـنـدهـشُ له الألباب

قوله: ﴿مَكْرًا﴾ الثانية في قوله: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ هي كالأولى، أي: مُؤكِّدة للفعل ومُقوّية لمعناه، وليس هذا من التكرار في شيء؛ لأنّهما جملتانِ منفصلتان، وكلُّ لفظةٍ منهما قد أكَّدت الفعل في

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 253.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 284.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 412.

جُملتها، فقوله: ﴿مَكْرًا﴾ في الأولى هو مؤكّدٌ لمكر ثمود ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾، و﴿مَكْرًا﴾ الثانيةُ مؤكّدةٌ لمكر الله بهم، وهو جزاؤُه وعقابُه الَّذي حلَّ بهم، حيث أكَّده بقوله: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾، وهذا من تمام المشاكلة بين الجملتين على مستوى الفعل وما أسند إليه والتوكيد. والغرضُ بيانُ الفرق بين المكرين؛ لأخذ العبرة والعظة بضَعْف الفعل البشري والتصوّر البشري أمامَ الفعل الإلهيّ والعلْم العظيم المحيط بكلِّ شيء. كما أنَّ تكرار ذكرِ اللَّفظين مع كونهما نكرتينِ يدلُّ على المفارقة والتغاير بينهما، كما هو معروف، مثلُ تغاير المراد باليسر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: 5 - 6] بسبب التنكيرِ في اللفظين، مع اتّحاد المراد بالعُسر بسبب التعريف فيهما. وأمّا عن دلالة تنوين ﴿مَكْرًا﴾ فهي التعظيم والتفخيم كـ﴿مَكْرًا﴾ الأولى، مع الفارق قطعًا؛ فعظيمُهم مهما بلغ فهو محدودٌ متناهٍ، وأمّا عظيمه سبحانه فليست له حدودٌ.

دلالةُ التعبير بقوله: ﴿وَهُمْ﴾:

(الواو) للحال، و(هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ في محلِّ رفع خبر المبتدأ[1]. أي: والحال أنّهم مع حرصهم و"اعتنائهم بالفحصِ عن الأمور، والتحرُّز من عظائم المقدور ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾"[2] بما دبّرناه لهم من العذاب. فالغرضُ من الحال بيانُ هيئةِ هؤلاء المتقاسمينَ على القتل، المتفقينَ على المكر والخديعة؛ أنَّهم في حالة عدمِ شعورٍ بما يجري لهم من مقاديرِ الله تعالى الخفيَّة، التي تحيط بهم ولا يَتحسَّسونها، وتُسلّطُ عليهم وهم عنها ذاهلون.

لا يغني حذرٌ من قدر

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 19/ 363.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 178.

بلاغة التعبير بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

مباغتةُ العذاب نقمةٌ فوق أذى العذاب

قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جملةٌ حاليّةٌ مؤكّدةٌ لما سبقَها من استعارةِ المكر للعقابِ الإلهيِّ الذي حلَّ بهم ووقعَ عليهم، "واخْتيرَت الجُمْلَة الاسميّةُ تأكيدًا لعدم شعورهم، وقدَّم المبتدأ عَلَى المسند الفعليِّ لتقوّي الحكم... ونزولُ العذاب بلا شعورٍ أفظعُ العذاب وأشدُّه، لا سيَّما حين انتظارِ نزول أصناف النَّعماء والسرّاء"[1].

دلالةُ نفيِ الشعور في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ دون نفي العلْم:

اندفاعُ الظّالمين للمكر يسلبُ عنهم إدراكَ المعلوم والمحسوسِ معًا

الشعورُ هو أدقُّ العلم، قال الراغب: يقال: "شَعَرْتُ: أصبتُ الشَّعْرَ، ومنه استُعير: شَعَرْتُ كذا، أي: علِمت علْمًا في الدّقّة كإصابة الشَّعْر، وسمّي الشّاعرُ شاعرًا لفطنته ودقّة معرفته، فالشِّعْرُ في الأصل اسمٌ للعلْم الدّقيق"[2]. وقيل: الشّعور هو الإحساسُ، أي: الإدراكُ بالحواسّ الخمس الظّاهرَة، وبهذا هو مقابلٌ للعلم عند بعض أهل العلْم، وداخلٌ فيه عندَ بعضٍ آخرين[3]. ويكونُ التعبير حينئذٍ بنفي الشّعور أقوى من التعبير بنفي العلْم؛ لأنَّ الشعور إنْ كان داخلًا في العلم كما هو الظّاهر من كلام أهل اللّغة وكثيرٍ من العلماء، فهو نوعٌ دقيقٌ خاصٌّ من العلْم، يدرك بالفطنة الزائدة، ويصيبُ المقصود كإصابة الشَّعَر. وإنْ كان مفارقًا للعلم بوصفه إدراكًا بالحواس الخمس، فهو من هذه الجهة أيضا أقوى من العلم، لكونه قد صارَ من قوّة ظهوره خاضعًا لإدراك الحواس، وهذا أقوى من العلم النّظريّ بلا خلاف، فيكونُ العقاب محيطًا بهم قابلًا للإدراك والإحساس، ولكنّهم مع ذلك لا يدركونه ولا يحسّونه، وبذلك انتفى عنهم إدراك المعلوم والمحسوس معًا من شدَّة ظُلمِهم ورغبتِهم بالمكْر.

(1) ابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد مع القونوي: 8/ 453.
(2) الراغب، المفردات: (شعر).
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 2/ 127.

دلالة التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

عبَّر بصيغةِ المضارع للدلالةِ على استمرار نفيِ شعورهم، وأنَّهم لا يشعرونَ في أيِّ وقت من الأوقات، بـ (نزول العذاب) وهو المتعلِّق المحذوف، كما يدلُّ عليه المقام، وقد صُرِّح به في الآية الآتية في قوله سبحانه: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والتعبيرُ بما يدلُّ على استمرار نفيِ شعورهم واضحُ الغرضِ في الدلالة على مُفاجأتهم بوقوعِ العذاب، ليكون أشدَّ عليهم وأنكى، وما استمرارُ عدمِ الشّعور إلا نتيجةٌ طبيعيّةٌ لاستمرار الظُّلم والتفكيرِ بالخديعة.

استمرارُ غياب الشعور نتيجةٌ طبيعيّةٌ لاستمرار الخديعة والمكر

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المكر والكيد:

يشتركُ كلٌّ من (الكيد والمكر) في أنَّ كلًّا منهما لا يكون إلا معَ تدبُّر وفكر؛ إلا أنَّ الكيد أقوى من المكر، والشّاهد أنَّه يتعدَّى بنفسه، والمكرُ يتعدَّى بحرف، فيقال: كاده يكيده ومكرَ به، ولا يقال: مكرهُ. والذي يتعدَّى بنفسه أقوى؛ فإن قيلَ: فما بالُ (الكيد) تعدَّى باللام في قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: 5]، فالجواب: الكيدُ هنا تضمَّن معنى فعلٍ يتَعَدَّى باللّام تَأْكيدًا وهوَ (يحتال)، أَي: فيحتال لإهلاكك حيلَة[1]. والمكر أيضًا تقديرُ ضررِ الغيرِ دونَ أنْ يعلمَ ما يُفعَل به، ألا ترى أنّه لو قال له: أقدرُ أنْ أفعلَ بك كذا، لم يكن ذلك مكرًا، وإنّما يكون مكرًا إذا لم يُعلمْه به، والكيد اسمٌ لإيقاع المكروه بالغير قهرًا سواءٌ علِم أو لا، والشاهد قولك: فلانٌ يُكايدني، فسمّى فعلَه كيدًا وإنْ علِم به..[2]. فكل مكرٍ كيدٌ وليس كلُّ كيد مكرًا بناءً على هذا الأساس. ونقل البقاعي عن الحرّالي في الفرق بينهما قولَه: المكرُ إعمالُ الخديعة والاحتيال في هدمِ بناءٍ ظاهرٍ كالدنيا،

الكيد أشدّ من المكر، وهو أخصّ مطلقًا منه أو مباينٌ له

(1) الكفوي، الكليات، ص: 771.

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، بترتيب وزيادة، ص: 508.

والكيدُ إعمالُ الخدعةِ والاحتيال في هدم بناءٍ باطنٍ، كالتديُّن والتخلُّق وغير ذلك، فكان المكرُ خديعةَ حسٍّ، والكيدُ خديعة معنىً[1]، وبناءً عليه تكون بينهما مباينةٌ تامّة. ولمّا كان ما وقعَ من ثمود من التدبيرِ الخفيِّ، وما وقع عليهم من العذاب غيرَ معلوم لهم ولا يشعرونَ به، وكان أيضًا تدبيرًا في هدم بناءٍ ظاهر فقد سُمّي مكرًا لا كيدًا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 419.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»